20051107-0007a.n2

مقبرة عنجر «غارنيكا» اللبنانية

لو ان ابا العلاء المعري بلغته انباء اكتشاف المقبرة الجماعية في عنجر وما قد يكتشف حولها من مقابر، لأعاد بناء قصيدته الشهيرة ومطلعها، «غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي...»، او على الأقل لاعاد على مسامعنا ابياته السائرة فيها حول تخفيف الوطأ، لأن هذه الارض من ثرى الاجداد. ربما كان على ابي العلاء ان يُطلق العقال لنزعته التشاؤمية، وهو يرى انه بعد قرابة ألف عام على رحيله، فان أديم هذه الارض عبارة ليس فقط عن بقايا تحلل اجساد من سبقنا، بل من تحلل اجسادنا نحن الاحياء الذين عشنا هذه الفترة. قبل ٢٠ عاما او اكثر او اقل لا فرق.

لا يستهدف مثل هذا الكلام التعمية على الفاعل، وهو هنا الاستخبارات السورية، كما لا يستهدف حصر هذا الامتياز بها دون سواها. كانت السيطرة على لبنان تفرض مثل هذه الممارسات وسواها. لكن هذا يفتح الكلام ولا يقفله. يتصرف الآن اللبنانيون كالقديسين والمتطهرين من الآثام والذنوب. هم عبارة عن اجساد نورانية صافية تنفذ منها الرؤية، تماما كالبلور او الماء الزلال، مجرد ضحايا بريئة. وهذا ليس صحيحا البتة. عندما كان يخطف من يخطف ويفقد في عنجر وسواها، كان «الصمت سيد الموقف». كان ذوو الضحايا وحدهم هم الذين يتعذبون دون لجنة حقوق الانسان في مجلس النواب او الوزراء ناهيك بمؤسسات المجتمع المدني. كان على هؤلاء المصابين في قلوبهم وافئدتهم ان يقتلعوا اشواكهم بأيديهم. وعندما كانت ترتفع اصواتهم وتجد لها بعض الصدى كانت تشكل لجان تتلقى الشكاوى عن فقدان هذا وذاك، ثم تنتهي كما بدأت. لا احد يعلم كيف تبخر هؤلاء الناس واين اصبحوا. كان كثيرون ممن يرفعون عقيرتهم الآن صميم «وحدة المسار والمصير» صامتين كأبي الهول، فيما كانت الارامل والايتام والمفجوعين تنكفئ على حزنها ووجعها من دون جدوى. بينما كان هؤلاء «يرفلون» بنعيم السلطة وامتيازاتها. لا، لم تكن الاستخبارات السورية «يتيمة الدهر» في المدى اللبناني، كان معها في مؤامرة الاخفاء اشكال والوان من السياسيين و«القوالين» والامنيين وكل منهم يعمل على «دوام الحال» الى الأبد.

واللبنانيون ليسوا قديسين، وهذا الاستفظاع الذي يتم الآن يستهدف في جانب منه التنصل من المسؤولية عن اخفاء ما هو اكثر من بصمات الجريمة بحق عشرات الوف المفقودين في طول البلاد وعرضها في غضون سنوات الحرب الأهلية. كانت كل قوة... منطقة ـ طائفة تعتبر نفسها سلطة قائمة بذاتها تملك حق الموت والحياة والامر والنهي، تفرض «قوانينها» العنصرية. من يسأل الآن عن الاف الذين جرفتهم الجرافات في هذه البؤرة او تلك، لا لسبب الا انها تنتمي الى الجماعة الاخرى، المغايرة طائفيا. وكل هذا طاله الاعفاء من جرائم الحرب. لكن من قال لذوي المفقودين على حواجز الخطف وسواها كلمة «حق». من اخبر هؤلاء ان الاب لن يرجع، والأخ لن يعود والابن لن تراه امه بعد الآن و... وان هناك ضرورة للملمة كل هذا الحزن. من قال للأهل ان يقيموا مأتما لائقا لمواطن معروف الاسم والعنوان ومجهول محل الدفن... لا أحد. حتى بعض الذين تلفظوا بما يشبه الاعلان، غسلوا ايديهم، كما فعل بيلاطس بعد ان كانت الدماء تنزف من مواقع مسامير المصلوب.

واللبنانيون ليسوا قديسين ابدا. اصلا لم يكن لحربنا اسرى. كل من قبض عليه صار «قتيلا» باعتباره محسوبا على فريق الاعداء. من عاد حيا الى بيته، اعيد لان آخر تم خطفه والتلويح بقتله في حال عدم استرداده. رأس برأس. هكذا حدثت مبادلات بالعشرات والمئات. لكن المواطن الذي لا ينتمي الى الجماعة الا بالاسم، لم يجد احدا جاهزا لتبنيه والخطف من اجل استعادته، فكان ان ضاعت دماءه بين السيوف، سيوف القبائل والطوائف.

20051207.0007b

لا ليس اللبنانيين من القداسة في شيء. قبل إن تنشب اخبار المقابر الجماعية الصدامية في العراق والعرقية في رواندا والطائفية في يوغوسلافيا السابقة. كنا نحن نسبقهم في هذه «الريادة». مع ذلك عندما قيل لنا ان الحرب قد توقفت لم يطلع احد من قادة الميلشيات الذين صاروا رؤساء ووزراء ونواب وما شابه ليقول لمواطنيه انني خضت بكم الحرب واخطأت هنا او هناك. كلهم كانوا آلهة وما زالوا... افعالهم بكل ما شابها مقدسة ومطهرة بالدم، دم الآخر الذي تم استئصاله، لم يتقدم احد بنقد ذاتي، لأنه فوق النقد، ولا بطلب الغفران او السماح من الناس الذين «افتى» بقتلهم بهذه الطريقة او تلك.. الكل ابرياء من دماء الضحايا، والكل لا يعلمون شيئا عن المقابر الجماعية.. لكن السؤال هو اين ذهب الناس، هل امتصت التربة بعد دمائهم ولحومهم عظامهم.. وما زال هناك من يرفض ان يصدق انهم لن يعودوا.

ليس من قبيل الصدفة ان تكتشف مقبرة عنجر، ولكن من «الصدفة» المقصودة ان تكتشف وحدها دون سواها.. هل وجد ١٥٠ ألف مواطن لبناني وعشرات الالوف من الفلسطينيين ايضا مقابر لائقة بهم لاناس يغادرون أعمارهم. يأتي اليهم اهلهم في الاعياد والآحاد ليصلوا لهم ويطلبون الرحمة والغفران... نعم هذه المقبرة صنيعة المخابرات السورية، ولكن امثالها واكثر لا تزال في طول البلاد وعرضها من صناعتنا، ولا احد يتحدث عنها... الكل يتصرف وكأن الحرب لم تنته وليست مرشحة للانتهاء... لا احد يريد ان يدفن قتلاه، الا ذوي العلاقة... اما من هم في السلطة الوافدة او السلطة الآفلة فتراهم على الأقل يقاتلون بكل ما اوتوا من قوة من اجل اخفاء معالم جريمة اكبر من هذا المقطع الدامي في غارنيكا اللبنانية التي لا تنتهي، لأن احدا لا يريدها ان تتوقف...

زهير هواري